التعليم فى انجلترا والبعوث العلمية

بقلم الأستاذ أحمد فهمى العمروسى بك

لا يسعنا فى هذه العجالة ، أن نشرح طرق التدريس فى المدارس الانجليزية شرحاً وافياً ، لأنها ذات أنظمة مختلفة ومناهج متعددة ، نظراً لاستقلال بعضها عن بعض ، وحرية كل منها فى مناهجها وبرامجها على الوجه الذى يناسبها ويلائم حاجة البيئة التى هى بها ؛ فإذا كانت المقاطعة صناعية عنيت عناية خاصة بالرسم والميكانيكا ، وإذا كانت تجارية اهتمت باللغات الحية وعلم إمساك الدفاتر والجغرافيا التجارية والحساب التجارى ، وهكذا مما جعل التعليم فى انجلترا محلياً خاصاً أكثر منه مشتركاً عاماً . وتسعى لأبناء كل مقاطعة أن يتهيئوا أكثر من سواهم لخدمتها والنهوض بها .

ولقد كان السبب فى استقلال هذه المدارس بعضها عن بعض ، أنها من عمل أفراد الأمة ونسج أيديهم ، إذ قامت بما تبرعوا لها من أموال طائلة وحبسوا عليها من أوقاف ضخمة ، وترعرعت تحت عنايتهم بها وغيرتهم عليها ، بعيدة عن سيطرة الحكومة ، خارجة عن منطقة نفوذها ، غير أنها ظلت متأخرة عن مدارس الأمم الناهضة بالقارة الأوربية كفرنسا وألمانيا إلى سنة ١٨٢٠ ، حيث قامت ضدها حملة صحفية شديدة ، ناعية عليها هذا التأخر ، متهمة إدارة مدرسة (إيتون) — وهى أشهر وأقدم مدرسة ثانوية فى انجلترا يؤمها أولاد الكبراء والعظماء — بسوء الإدارة وتبديد الأموال وصرفها فى غير وجوهها .

لم يسع الحكومة إزاء ذلك ، إلا أن تتدخل فى الأمر ، لا لأن لها الحق فى أن تتدخل فى أمور التعليم — وهو خارج عن نفوذها كما قدمنا — بل لما لمجلس النواب من حق الإشراف على إنفاق أموال الأوقاف العامة ووجوه صرفها . وفعلا شكلت لجنتين رسميتين للتحقيق ، إحداها تحت رياسة (لورد كلارندون) سنة ١٨٦٢ للفحص عن حال المدارس التسع التى كانت — ولا تزال — خاصة بتربية أبناء الطبقات الحاكمة والأسر الغنية كمدرسة إيتون وهارو ورجبى وهكذا ؛ والثانية سنة ١٨٦٥ تحت رياسة لورد (تاونتون) للبحث عن حال المدارس الثانوية الأخرى التى يتعلم فيها أبناء الطبقات المتوسطة ، وهى كثيرة العدد .

وبعد سنتين قضتهما تلك اللجنة بحثاً وتنقيباً ، قدمت تقريراً إضافياً وقع فى واحد وعشرين مجلداً ،

شرحت فيه ماشاهدته من المساوى ، والعيوب فى إدارة هذه المدارس ونظم التعليم فيها، شافعة ـ باقتراحاتها السديدة ـ الداء بالدواء .

ومما يذكر مع الإعجاب ، أن هذه اللجنة أوفدت بعض أعضائها إبان التحقيق إلى البلاد الراقية إذ ذاك للموازنة بين حالة التعليم فيها وحالته فى انجلترا ، واقتباس ما يمكن اقتباسه من أنظمتها.

فأوفدت مثلا إلى فرنسا العالم الشهير (ماتيوآرنولد) الذى بحث حالة التدريس فيها بحثاً دقيقاً، وأشار بإدخال علم التاريخ فى برنامج الدراسة ، وتدريسه تدريساً منتظماً ، كما هى الحال الآن ، وقد كان المعلمون الإنجليز قبل ذلك يظنون استحالة تدريسه بطريقة منظمة .

بل لقد كان دهشهم عظيماً حين اطلعوا على منهج الدراسة الفرنسى فى هذا العلم ، ورأوا تفصيل الحوادث مرتباً بترتيب العصور ، بحيث يكون الطفل الفرنسى فى آخر مدة الدراسة ملماً بتاريخ الأمم كلها ، وكان المربون الإنجليز يقولون : كيف يسع ذهن الطفل الصغير كل هذا المدى الواسع من التاريخ ؟ ولم يقلدوا الفرنسيين فى تدريس التاريخ إلا بعد أن زار (ماتيوآرنولد) فرنسا ونقل إليهم طريقة تدريسه فيها .

وقد قال ذلك العالم فى التقرير الخاص الذى قدمه إلى اللجنة عن حال التعليم فى فرنسا مانصه :

«من المحقق أن عدداً كبيراً من مدارسنا الثانوية لا يوازى مستوى التعليم الأولى فى مدارس التمرير الأولية الفرنسية ، وإذا فرض أنهما تساويا فى الدرجة والجودة ، فإن مجموع من يتعلم فيها عندنا لا يتجاوز ١٦٠٠٠ تلميذ ، وفى المدارس الثانوية الفرنسية ما يزيد على ٦٦٠٠٠ تلميذ »

وبعد أن وصف حال المدارس وصفاً دقيقاً ، وشرح عيوبها شرحاً وافياً ، وضع منهجاً جديداً ضمنه إدخال العلوم الطبيعية وزيادة الرياضيات والإقلال من دراسة اللاتينية واليونانية، واقترح أن يكون للحكومة حق الإشراف على هذه المدارس، لأن الأهالى لا يمكنهم أن يميزوا بين المربين الحقيقيين ، وبين من يدعون التربية وهى منهم براء .

هذه حال المدارس فى انجلترا من نحو نصف قرن ، وهى ماحدت بالعالم الكبير (هاكسلى) أن يقول إذ ذاك « إن الأجيال المقبلة ستسخط علينا إذا نحن لم نجد علاجاً لهذه الحالة المخزية المخجلة، وإذا عشنا عشرين عاماً بعد اليوم على هذه الحال ، فستحتقر نفوسنا وتنكر وجودنا».

هذه الانتقادات المرة الصادرة عن قلوب لا تكن غير الإخلاص لأمتها ، ولا تعرف للمحاباة والمداجاة سبيلاً ، كانت هى المهماز الحاد فى حث الهمم الانجليزية على إصلاح المدارس، والدليل المرشد لأهل الفطن والرأى، فى درس أحوال التعليم بممالك أوربا الراقية ، وخاصة فرنسا ، واقتباس مايوافق منها البيئة الانجليزية ، ونقله إليها .

من ذلك الحين سارت تلك المدارس فى ترقية شئونها سيراً حثيثاً ، وأخذت تجارى نظيراتها الراقية بالقارة ، فى ميدان العلم الصحيح .

هذا وأهم ما يعنى به المدرس الانجليزى « الكيف » لا « الكم » فى التدريس ، فسر التعليم عندهم هو فى القليل الشائق المفهوم الذى يدعو إلى الاستنباط ويعود الحكم الصحيح على الأشياء ، والتبصر فى عواقبها ، وحسبى دليلا على ذلك صحيفة بديعة خطها يراع العالم الانجليزى الشهير (تندال) فى التعليم الصحيح ، الذى يصل بالتلميذ إلى قوة الإبداع والاختراع ، قال :

« كلفت تدريس الرياضة فى بداءة قيامى بحرفة التدريس ، فرأيت أن أجعل نظريات إقليدس فى الهندسة دروساً شائقة حية بإدخال شىء من الصنعة وبذل المجهود فى ذلك . فرأيت من تلاميذى عكساً كبيراً بأهداب القديم ، ونفوراً من كل جديد ، لأنهم ألفوا تلك الطرق القديمة العقيمة ومرنوا عليها « وصعب على الإنسان ما لم يعود » بدأنى مع المثابرة فى طريقى ، ما عتمت أن رأيت أساريرهم تبرق بالفرح ، وقد بدت على وجوههم علائم السرور ، واعتراهم الذهول الذى اعترى (أرشميدس) لما صاح قائلا : أوريكا ! أوريكا ! إنى وجدت ! إنى وجدت ! وقد شعر كل تلميذ أن فيه قوة مدركة يمكنها أن تصل به إلى استخراج حقائق كانت مجهولة لديه ، وبدا تولد فى تلاميذ فصولى حب العمل واستنباط الحقائق والكشف عن كل مجهول ، حتى بلغوا درجة مدهشة بين إخوانهم فى الفصول الأخرى . وقد قصدت بهذه الطريقة ، أن تكون دراسة الهندسة وسيلة لتربية الإرادة والالتفات والانتباه ، أكثر من أن تكون مادة مقررة فى المنهاج حسب . ولقد كانت ألذ ساعات ذقتها فى حياتى ، هى تلك الساعات التى كنت أشاهد فيها تدفق قوى عقلية كانت كامنة كمون النار فى الحجر ، فأخرجتها إلى عالم الظهور والحس »

***

إنه لجدير بى — وقد ذكرت ما ذكرت من كلام العالم « تندال » — أن أوجه نظر بعض إخوانى المدرسين ، إلى مغزى تلك الصحيفة البديعة ، فإن فيهم من يهتمون بإتمام المقرر ، أكثر من اهتمامهم بتثقيف أذهان تلاميذهم ، وتربية ملكة التعقل والاستنباط فيهم ، حيث لا يدعون لهم من الوقت ما يمكنهم من التفكير والتروى ، بحجة أن المقرر أطول من أن يسمح بالمناقشة والجدل .

نعم إن برامج التعليم عندنا قد لا تخلو من هذا العيب ، ولكن اعتقادى أن المعلم الكفء لا يكون أسير المنهج ، ولا يتقيد بإتمامه تقييداً يضيع على المتعلمين أهم مزايا التعليم ، ولا يحجم عن إدخال أية مادة عليه ، أو إغفال أى جزء منه ، وفق ما تقتضيه الظروف وتتطلبه مواهب التلاميذ .

إننا إذا أردنا أن ننهض بالتعليم نهضة حقيقية تلائم الطور الحديث ، الذى نوشك أن ندخل فيه ، لم نجد وسيلة لذلك سوى أن نعنى قبل كل شىء آخر بالإكثار من المدرسين الأكفاء ، ومضاعفة البعوث العلمية إلى كليات وجامعات الأمم الناهضة والحرص على زيادتها باستمرار ، حتى نصل بمصر إلى المكانة اللائقة بها . وماذا تغنى المناهج الطلابية إذا لم تتناولها الأيدى الماهرة من أكفاء المعلمين ؟

وبعد فإنه ليسرنى وسائر رجال التعليم جد السرور ، ونرى من الواجب علينا تسجيله بجزيل الشكر وعاطر الثناء ، إقدام وزارة المعارف — ابتداء من سنة ١٩٢٣ حتى الآن — على تكميل هذا النقص فى أقرب زمن مستطاع . فقد قررت اليد فى إصلاح البرامج والعمل على تهذيبها وتنقيحها . وعز على الوزارة أن يفوتها تتبع خطوات التدريج والارتقاء فى طرق التعليم الحديث ، وضرورة العمل على دراسة أحدث أساليب التعليم فى إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا ، بواسطة مفتشين يسافرون إلى تلك الجهات . ويقيمون فيها زمناً يمكنهم من تلك الدراسة وتقديم تقارير وافية ، تستعين بها الوزارة على أن تنقل من الطرق المستحدثة ما تستطيع به رفع مستوى التعليم عندنا .

ثم لم تكتف بذلك ، بل قرنت تقريرها لهذا الأمر — الذى شعر كل غيور عند قراءته بهزة فرح ونشوة سرور — بقرار آخر أعلى شأناً وأرفع مقاماً ، وهو الإكثار من أكفاء المعلمين والنابغين بزيادة طلبة البعوث العلمية ، فلم يفتها بذلك ما قدمناه من أن الأكثار من الأيدى الماهرة ، والرءوس المفكرة ، هو سر التقدم وأساس النجاح ، وما مثل البعوث العلمية التى نرسلها إلى الأمم الراقية إلا كمثل النوافذ المنزلية المشرفة على الحدائق الناضرة والبساتين الزاهرة ، كلما تعددت وعظمت ، كانت مشرقاً للنور القوى الزاهى ، ومدخلاً للهواء العاطر ؛ فكل أمة تريد أن تنهض وترقى ، لا بد أن تطل على الدنيا الحديثة ، وتتصل بالعالم المتمدن الجديد : وهذا هو السر فى تفوق اليابان وغيرها ونهوضها تلك النهضة السريعة .

فنحن نشكر وزارة المعارف على هذه الفكرة القيمة ، ونتمنى أن تتوسع فيها ، وتتبسط ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، وإذا أعوزها المال فلن تعدم وسيلة لتقصد أو التحوير فى أبواب أخرى من الميزانية ربما كانت أقل شأناً وأيسر خطراً ؛ وهأنذا ضارب على ذلك مثلاً : تخصص وزارة المعارف سنوياً مبلغاً عظيماً لإعانة المدارس الحرة ، ثانوية وابتدائية غيرة منها على التعليم ، وحرصاً على انتشاره ؛ غير أن من خير حال هذه المدارس ، وسير غور التعليم ونظامه فيها يجد — مع الأسف — أن أهم ما ينقصها ، إنما هو المدرس الكفء ، وهى فى

مجموعها عاجزة عن إيجاده ، ولها العذر فى ذلك . إذن فيم تنفق هذه الإعانات ؟ ... إنها تنفقها فى إعداد المكان ، وتجهيزه بما يلزمه من أدوات وأثاث وغيرها ، مما لا يفيد شيئاً مادام يعوزها المدرسون الأكفاء .

فإن كان لدينا رجاء نبسطه فى هذه النقطة إلى وزارة المعارف . فهو الاستعانة بهذا المبلغ الذى يربى على العشرين ألف جنيه فى ميزانية كل عام ، على الإكثار من المدرسين الأكفاء ، وتحسين حال المدرسين ورجال التعليم ، حتى يفضل عددهم حاجة الوزارة ، ويتسنى لها إذ ذاك أن تهدى إلى المدارس الحرة من حضراتهم من يكونون فى نظر أصحابها أنفس وأغنى من تلك الإعانات .

ولعمرى إن ذلك لو تم — والأمل عظيم فى إتمامه بل إتمام ما هو أعظم منه شأناً — لكان خير خدمة تقدمها لمصر عامة ، ولتلك المدارس خاصة والله ولى التوفيق .

أحمد فهمى العمروسى

قناطر المستقبل

[بقية المنشور على الصفحة رقم ١٩٧]

بناة كورى (بروكلن) ، وشركة (دج أندرك للجيرات الكبيرة) وهى التى وهبت المعرض كل الأراضى المقام عليها ، ثم شركة مصاعد (أوبتس) ، وهى التى ركبت المصاعد فى برج إيفل . ثم (شركة الصلب الداخلية ، وشركة المنشآت الصلبية فى وادى المسيسبى) ، ثم (روبنسن وستين مان المهندسان) الرسامان اللذان رسما قنطرتى (مانهاتان) و (رويه) .

وقد عبر الدكتور (ستين مان) عن رأيه وزملائه فى هذا الصنف القادم من القناطر بقوله :

« إن هذه المنشآت ستكون فاتحة عصر جديد فى تصميم الكبارى فهى أرخص بكثير من الكبارى الحالية وأسرع فى البناء ، وستمكننا من بناء كبارى أكبر مما نستطيع بالطريق الحالية ، ولن تحرمنا من ميزات إقامة الكبارى بالطريقة الحالية ، وستثبت لأول مرة أن الصلب يمكن أن تزداد درجة تحمله إذا كان قابلاً للشد ، فإن قوة الأعمدة المستعملة تعادل أربع مرات قوة متيلاتها غير القابلة للشد ، وهذه المآذن هى أعلى مآذن من الصلب فى العالم استخدم فى صنعها اللحام ، وهى أصعب الأشياء التى أمكن أن يستخدم فيها ما حدث من تقدم فى عمليات اللحام حتى الآن . وطول القنطرة ١٨٥٠ قدماً ، فإذا أردنا أن نعمل قنطرة أطول منها عشر مرات فإننا لا نحتاج لأكثر من زيادة فى الوقت وفى مواد البناء .

وكل أملنا أن يعيش قراء هذه المجلة ليروا هذه القناطر الهوائية رؤية عيان .